



من تاريخ بيت المقدس :

مصر ترفض طلباً فرنسياً



أحول بيت المقدس ٧٢٠هـ / ١٣٣٠م

الدكتور عبد الهادي التازي

وقد رأينا في هذه الشهادة ما يدعو إلى تحقيق القول حولها سيما وهي تحث بعدد من الإفادات التاريخية التي تكشف عما كان يجري أحيانا في الدوائر الحكومية، بل وفي القصور السلطانية من مناورات ومواربات كانت تؤدي أحيانا إلى أعظم الكوارث التي يمكن أن تحيق بالدولة. لقد تحدث العُمري عن المكاتبات والمهاداة التي كانت لا تنقطع بين ملك مصر وبين أودفونش ملك طليطلة، وهنا لاحظ أن الأمر على العكس من ذلك بين مصر وفرنسا ... فهو، أي ابن فضل الله العمري، لا يذكر إلا بعثة واحدة كانت هي الأولى والأخيرة، وهي التي ورد فيها سفير فرنسا يطلب باسم ملكة بيت المقدس في مقابلة أن يفتح له، أي ملك مصر، ساحل قيسارية^(١) وعسقلان^(٢) ويكون للإسلام بهما وجود للولاة مع ولاته هو، وتكون البلاد بين الطرفين مناصفة، ومساجد المسلمين قائمة، وإدارات القيمين على تلك المساجد دائرة، ويلتزم ملك فرنسا - في حالة تنازل ملك مصر عن القدس - أولاً بأن يبذل مائتي ألف دينار معجلة ! ثانياً بأن يحمل في كل سنة نظير دخل نصف البلاد التي يتسلمها إلى ملك مصر على معدل ثلاث سنين ... ثالثاً بأن يطرف ملك مصر في كل عام بغرائب التحف والهدايا.

ولكأنما الحروب الصليبية التسع بما جرت من خراب ودمار لم تكن كافية لحسم الأطماع في فلسطين، ولكأن الفتح القدسي الأول عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م والفتح القدسي الثاني عام ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م والفتح القدسي الثالث عام ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م ... لم يترك له صدى عندهم ... ولكأن ما شاهده الساحة المصرية في الحرب الصليبية السابعة عام ٦٤٦ - ٦٥٢ هـ / ١٢٤٨ - ١٢٥٤ م عندما وقع ملك فرنسا سان لوي أسيراً عند المصريين في أعقاب عدوانه على دمياط ... كأن كل ذلك لم يكن كافياً بما صحبه من دروس وعبر ... حتى وجدنا سفارة فرنسا بالديار المصرية ... يبعث بها الملك فيليب دوفالوا (فيليب الثالث) (PHILIPPE DE VALOIS) إلى سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٢٠ هـ / ١٣٣٠ م كانت تهدف إلى مفاتحة العاهل المصري حول قضية من أخطر القضايا : تلك أن يتنازل ملك مصر لملك فرنسا عن القدس الشريف !!

لقد وردت أخبار هذه المطالبة غرضاً في كلام ابن فضل الله العمري وهو يتحدث في كتابه : «التعريف بالمصطلح الشريف» عن أسلوب المكاتبه إلى ملوك أوروبا ...



المقدس لا يهّم تلك الجهات من قريب أو بعيد !

وقيل أن نقف مع ابن فضل الله على تلك اللقطة ينبغي أن نعرف أن هذا الكاتب الكبير هو الذي نعتة المؤرخ الشهير ابن إياس في كتابه «بدائع الزهور» بأنه «من أذكى العالم ...» ويكفي أن نعرف بأن الرجل نشأ في بيت لم ينقطع أهله عن الكتابة والدراية ... ونحن نعرف أن والده محيي الدين عمل في كتابة السر منذ عام ٧٢١ هـ أيام الناصر وأنه - ولو صرف عنها لبضع سنوات - فإنه عاد إليها عام ٧٢٠ هـ / ١٢٣٠ م حيث استمر في وظيفته تلك إلى عام ٧٢٨ هـ بعد أن عاش نحواً من ثلاث وتسعين سنة حيث عوضه أولاً ابنه أبو العلاء عليّ الذي لم يلبث أن ترك المكان عام ٧٤٢ هـ / ١٢٤٢ م لأخيه شهاب الدين الذي هو موضوع حديثنا والذي استمر إلى أن أدركه أجله عام ٧٥٠ هـ / ١٢٤٩ م تاركاً المنصب أيضاً لابنه بدر الدين محمد ... فالبيت إذن بيت رياسة وسياسة وبيت غيرة على الإسلام ومعاله ...

يقول العُمري : لقد بلغ هذا إلى أبي رحمه الله فألى إلا أن يجاهر في هذا ويجاهد بما أمكنه ويدافع بما قدر عليه ولو أن السلطان لاوى - أصرّ - على رأيه أن أصغى إلى أولئك الأفكة ... وقال لي : تقوم معي ونتكلم، ولو خضبت منا ثيابنا بدم !! ولم يكتف ابن فضل الله بإطلاعنا على هذا الحوار الهام الذي جرى في البيت ولكنه تجاوزوه إلى الإفادة بأن الأب وابنه راسلاً أحد رؤساء البلد ممن لا يخافون في

هذا مضمون الرسالة التي حملها السفير الفرنسي إلى العاهل المصري ويتأكد أن التقليد كان جارياً - كما هو إلى اليوم - على تسليم نسخة من الرسالة إلى المكلفين بالعلاقات الخارجية تمهيداً للجواب واستعداداً لاتخاذ المواقف المناسبة عندما يرفع الكتاب بصفة رسمية أمام حضرة السلطان ...

وقد تناهت هذه الرسالة إلى أحد الكتبة - على ما يقول ابن فضل الله - ممن أصبحوا رؤساء في الدولة وأمسى زعيمهم البلاط على نحو الذين يجعلون على رؤوسهم العمام البيضاء والستائر السود^(٣)، مع أنهم - يقول ابن فضل الله - أعداء زرق يجرعون الموت الأحمر ! وكأنّ العُمري يقول إن النسخة من الرسالة وقعت في يد غير أمينة ... قال : إن هؤلاء الكتبة حسّنوا هذا القصد ... ولو أنه يسري في الأبدان سريان السمّ في وقت يعزّ فيه الترياق ! ولقد برروا تمشيتهم للمطلب بأن هذا مال جليل ينبغي أن لا تُضيّع الفرصة بتسلمه اليوم ! ولكي يزيد الكاتب في وسائل الإغراء والتضليل حتى تقبل المطالب ... يقول : ثم ما عسى أن يكون من أولئك الفرنج وهم نقطة في بحر، وحصاة في صحراء ؟؟

وهنا يستطرد ابن فضل الله العُمري ليقدم لنا لقطة رائعة عما كانت البيوت تتناجى به من أحاديث عندما تصل إلى مسامعها أصدااء تلك «التوجيهات» التي لا تصدر إلا عن جهات لا إحساس لها بالأخطار التي تهدد المقدسات الإسلامية وتضرب المؤمنين في الصميم ... إن بيت

وهو يتوجه إلى السفراء الذين تجشّموا
عناء السفر ليبلغوا هذه الرسالة ... توجه
إليهم ليقول لهم مذكراً ومحذراً ومنذراً
كذلك :

وَالَكُمْ ! أنتم عرفتم ما لقيتم في دميّاط
من عسكر الملك الصالح وكانوا جماعة
أكراد ملفقة مجمّعة، وما كان بعد هؤلاء
الترك، وما كان يشغلنا عنكم إلّا قتال
القتار ! ونحن اليوم بحمد الله تعالى على
الصلح ... نحن وإياهم من جنس واحد،
ما يتخلّى بعضه عن بعض، وما كنا نريد إلّا
الإبتداء، فاما الآن فاخلصوا وتعالوا ! وإن
لم تجيئوا فنحن نجنيكم ولو أننا نخوض
البحر بالخيّل ! وَالَكُمْ ! صارت لكم السنّة
تذكر القدس ! والله ما ينال أحد منكم منه
ترابه إلّا ما تسفيها الرياح عليه وهو
مصلوب !

ويختتم ابن فضل الله هذا (الرويّورطاج)
ليذكر أنّ السُلطان الناصر صرخ فيهم
صرخة زعزعت قواهم، وردّهم أقبح ردّ .
ولم يقرأ لهم كتاباً ولا رد عليهم سوى هذا
جواباً ...

وغير خاف أنّ الناصر كان يقصد في
صدر الحديث الموجه لأعضاء السفارة
إلى ما جرى في أحداث ٦٤٦ هـ / ١٤٨ م
أيام الملك الصالح عندما جاءت الأخبار
تتحدث عن أن الفرنج جاءوا إلى ثغر دميّاط
في مائتي مركبة - كما قلنا - فنهب المدينة
وقتل من المسلمين ما لا يحصى عددهم ...

فلما جاءت الأخبار بذلك أمر الملك
الصالح بإشعار الدّاء في مصر والقاهرة
بالنفيّر العام ... ووقع الصدام الذي توفي
في أثناءه الملك الصالح حيث عوضه ابنه
توران شاه الذي استطاع أن ينزل هزيمة

الله لومة لائم، وهو أبوالمعالى قاضي القضاة
الخطيب الشهير جلال الدين القزويني
الذي ولى القضاء في إحدى جهات الرّوم
وفي دمشق وفي مصر قبل أن يدركه أجله
عام ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م ... وهو صاحب
تلخيص المفتاح في علوم البلاغة ... وقد
كان يعرف اللغة التّركية والفارسية ...

ولم يكن موقف جلال الدين بالمخاذل
ولا بالمتساهل، ولكنه أجاب وأجاد
الإستعداد، على حدّ تعبير ابن فضل الله،
الذي يتابع كلامه الذي يفيد أنه كان آنذاك
إلى جانب والده الذي يعمل في كتابة
السّر ... قال : لقد بكرنا إلى الخدمة
وحضرنا بين يدي السُلطان بدار العدل
(وقد كان يعني بها القصر الذي بناه الملك
الناصر لاستقبال السّفراء الأجانب في ذلك
العصر - قال :

ولما حضرت الرّسل بين يدي السُلطان
وكان بعض أولئك الكتبة حاضراً أخذ
يستعدّ لأن يتكلّم، وكذلك نحن أخذنا
نستعدّ للكلام ... فما استتم كلامهم حتى
غضب السُلطان وحمى غضبه ! وكاد
يتضرّم عليهم خطبه ! ويتعجل لهم عطبه !
وأسكت ذلك المنافق بخزيته . وسكتنا نحن
اكتفاءً بما بلغه السُلطان، مما ردّ
- بخيبيته - قصد ذلك الشيطان (وكفى الله
المؤمنين القتال)، وردّت على راميتها
النّصال !

مشهد رائع قدّمه إلينا ابن فضل الله
العُمري ينم عن مدى الشعور بالمسؤولية
الخطيرة التي كان يضطلع بها الناصر فيما
يتّصل بأمر التسليم في بيت المقدس، وقد
شعر العمري بأن الموضوع يحتاج إلى أداء
أكثر، فنقل إلينا ما قاله السُلطان الناصر



الهوامش

(١) قيسارية : كلمة قيسارية او قيصرية (CESAREE) يطلق على الشوق ولكنها تعني هنا اسماً لبعض المدن. والقصد هنا إلى ثغر يقع على ساحل البحر المتوسط. وهي من أعمال فلسطين وكانت قديماً من أعين أمهات المدن افتتحها العرب سنة ١٢ هـ/ ٦٣٣ م لم يبق فيها اليوم إلا الإنتقاض فقد خربها الفاتحون السابقون حتى لا يطمع فيها اللاحقون :

(٢) عسقلان (ASCALON) : مدينة من أعمال فلسطين على ساحل المتوسط استولى عليها الفرنج عام ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م وبقيت بأيديهم إلى أن إستنقذها صلاح الدين يوسف بن ايوب عام ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م ثم قوى الافرنج وفتحوا عكا وساروا نحو عسقلان فخشي صلاح الدين أن يتم عليها ما تم على عكا. فخربها في شعبان عام ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م. ولما زار ابن بطوطة هذا الثغر عام ٧٢٦ هـ وجده خراباً قد عاد رسوماً طامسة واطلاً دارسه ... رحلة ابن بطوطة ج ١ تحقيق الدكتور عبد الهادي القازي. جاهز للطبع ...

(٣) ظل الزي في عهد المماليك يتطور تطوراً ملحوظاً لأنه - كما قلنا - سريع الحساسية والتطور وكان لكل طبقة في المجتمع زي خاص. ومن هنا كان السؤال في مصر عن الزي، أي عن الوظيفة أو المركز أو الهوية. د. عبدالمنعم مaged : نظم دولة سلاطين المماليك ... ١٩٦٧ م. مكتبة الأنكلو المصرية.

المصادر والمراجع

- ١ - السلوك لمعرفة دول الملوك. طبعة دار الكتب المصرية. تحقيق محمد مصطفى زيادة ١٩٣٤ م.
- ٢ - ابن إيس : بدائع الزهور في وقائع الدهور. تحقيق وتقديم محمد مصطفى. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.
- ٣ - حسين احمد امين : الحروب الصليبية في كتابه المؤرخين العرب المعاصرين لها. مكتبة النهضة المصرية. ١٩٨٣ م.
- ٤ - د. السيد الباز العريضي : القول. دار النهضة العربية. ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.
- ٥ - ابن فضل الله العمري : (التعريف بالمصطلح الشريف) دراسة وتحقيق د. سمير الدويبي. منشورات جامعة مؤتة (بالعربية والإنجليزية. ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م).
- ٦ - ستيفن راسميسل : تاريخ الحروب الصليبية. نقله إلى العربية د. السيد الباز العريضي. ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م.

منكرة بالمهاجمين ... وأرسل ملك فرنسا لويس التاسع يطلب الأمان إلى آخر ما ترويه كتب التاريخ بكل لسان، وقد حفظ طلبة المدارس منذ أيامهم الأولى قصيدة جمال الدين ابن مطروح التي بعثها كرسالة شعرية إلى ملك الفرنج :

قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جِئْتَهُ
مَقَالَ نَصَحَ مِنْ قَوْلٍ فَصِيحٍ
أَتَيْتَ مِصْرًا تَبْتَغِي مَلَكَهَا
تَحْسِبُ أَنْ الزَّمْرَ - يَا طَبْلَ - رِيحٍ
فَسَاقِكَ الْحَيْنَ إِلَى عَسْكَرٍ
ضَيَّاقٍ بِهِ عَنْ نَاطِرِيكَ الْفَسِيحِ
إِنْ كُنْتَ عَوَّلْتَ عَلَى عَوْدَةٍ
لَاخِذْ ثَارَ أَوْ لِنَقْدِ صَحِيحٍ
دَارِ ابْنَ لَقْمَانَ عَلَى حَالِهَا
وَالْقَيْدَ بَاقٍ وَالطَّوَاشِي صَبِيحٍ !

كما وليس خاف كذلك أَنَّ النَّاصِرَ وَهُوَ
يُثِرُ عِلَاقَاتِهِ مَعَ التَّتَارِ كَانَ يَقْصِدُ إِلَى
الاحتكاكات التي كانت تصدم بين المماليك
وبين الإيلخانيين والتي كان يغذيها أحياناً
الحلف الصليبي الإيلخاني إلى أن تمَّ
الحسم في معركة عين جالوت ٦٥٨ هـ/
١٢٦٠ م فبفضل انتصار الأمير قُطْز بطل
المماليك، في هذه المعركة، بفضلله أصبحت
سلطنة المماليك أقوى دولة في الشرق
الأدنى لمدة تزيد على القرنين إلى ظهور
الأتراك ...

وبعد، فتلك وقفة مع التاريخ على
مشارف القدس قصداً ترديدها لكل الذين
يهتمون بتاريخ بيت المقدس، أنقذه الله من
الرَّجْسِ ...